**الأستاذة: بلحريزي سعاد.**

**مقياس: سوسيولوجيا المؤسسة التربوية.**

**الأولى ماستر علم إج التربية.**

**عنوان المحاضرة: المؤسسة التربوية من منظور النظرية التبادلية السلوكية**

**مقدمة:** نظرية التبادل الاجتماعي في علم الانسان أي الأنثروبولوجيا

لقد تبلورت هذه النظرية أولا في الأنثروبولوجيا، ثم منها إلى علم الاجتماع، فعلم اجتماع التربية؛ ومن أبرز روادها في علم الانسان ما يلي:

1. "جيمس فريزر": أظهر في كتابه "الطرائق الشعبية في العهد القديم" عادات الزواج والنظام القرابي في المجتمعات البدائية، من خلال دراسته لنظام الزواج في مجتمع "أبورجنالس" في أستراليا؛ حيث لاحظ بأن عامل الملكية غائب في الزواج؛ فعند زواج الرجل لا يتطلب منه أن يكون مالكا لثروة مالية، أو مادية، بل يشترط أن يكون لديه أخوات أو بنات لكي يستطيع أن يتزوج بواسطتهن، حيث لا يستطيع أن يحصل على زوجة ما لم يقدم من أخواته أو بناته بديلا عنها، ما يدل على أن المرأة تتمتع بقيمة اقتصادية وتجارية عالية.
2. "كلود لفي ستروس": حلل في كتابه "أسس بناء النظام القرابي " نظام الزواج من الأقارب وبين أبناء العم، حيث وجد أن عملية التبادل في هذا المجتمع تحل مشكلة اقتصادية قائمة فيه، فالرجل الذي يبادل أخته وابنته للحصول على زوجة، وهذا يعد من أرخص الطرق دون امتلاك هذا الزوج ثروة أو أملاك.

ولكن "ستروس" أضاف أن عملية التبادل الاج تتضمن الكلفة الاجتماعية التي تختلف عن الكلفة الاقتصادية، لأن الكلفة الاج تعني الالتزام بالآداب الاج العامة والقيم والأعراف وعدم مراعاة الرغبة النفسية فقط (السلوكية)، فالالتزام بالآداب العامة يجابهه اعتراف الجماعة بعضوية الفرد.

ينظر "ستروس" إلى عملية التبادل الاج على أنها جزء من عملية التكامل والتضامن الاج وقد استنتج أن:

دوافع الفرد لا تؤثر بقدر ما تؤثر مكونات البناء الاج التي يتعلمها من خلال التنشئة الاج على عملية التبادل الاج بين الأفراد. فالقيم الاج هي التي تضع مكافأة لبعض أنماط السلوك المتماثل وتضع عقوبات على الفرد المعارض.

انتقد "ستروس" التفاسير والتحاليل النفسية التي استخدمها السلوكيون، وكل التجارب التي أجريت على الحيوان من طرف: "بافلوف"، "واطسن" "ثورندايك"، التي تتضمن الاستجابة مقابل المكافأة، والتي عممت نتائجها على السلوك الانساني، وأضاف "ستروس" أن السلوك الانساني أو المجتمع الانساني يتميز بالإرث الحضاري أو التراث الثقافي من: قيم، أعراف، عادات لا توجد في المجتمع الحيواني.

كما استبعد "ستروس" التفاسير الاقتصادية القائمة على المنفعة.

1. "مالينوفسكي": اهتم بدراسة ظاهرة التبادل الرمزي في جماعة "الكولا" في مجتمع "ثروبرياندس" (الطرف الشرقي لغانا الجديدة). ينقسم الكولا إلى جماعتين، واحدة تعطي الأساور والأخرى ترد لها القلائد، ومن خلال ذلك تبنى علاقات اجتماعية متينة، فهذا التبادل لا يحمل منفعة اقتصادية (فهو تبادل لبضائع كمالية وليست نفعية). فعلى العكس تماما عندما يكون التبادل اقتصاديا ويخص بضائع نفعية أي غير كمالية بل ضرورية، ففي هذه الحالة تجرى مساومات عدائية مجادلة حادة في الثمن.

هناك شكل أخر من التبادل يجري خلال الاحتفال الديني «  Le poltach »الذي يقيمه هنود على الساحل الغربي من كندا، ويتمثل هذا الاحتفال في تقديم هدية إلى الغير على أن يلتزم هذا الأخير بتقديم هدية مقابلة أعلى ثمنا من التي قدمت له، وإذا لم يتمكن من ذلك فإنه يذل، إذن هي لعبة عدوانية واستغلالية.

1. "مارسل مورس": ألف كتابا حول الهبة سماه: "محاولة حول الهبة" « Essai sur le don » 1924، حيث تعتبر دراسة مثالية للتفاعلات التبادلية؛ ففي نظره أن الآداب الاج تمثل قوة إلزامية في المجتمع تفرض على الأفراد إعطاء وإعادة إرجاع هدية مماثلة أو ذات قيمة أكبر من المستلمة، فتبادل الأساور والقلائد عملية اجتماعية صرفة وليست اقتصادية وهي من الآداب العامة التي تحافظ على البناء الاج، وبالتالي فقد تأثر بالكلفة الاج وليس الاقتصادية.

**نظرية التبادل الاج في علم الاجتماع:**

1. "جورج كاسبار هومانز": عمل في جامعة بوسطن ثم كامبردج، اقترح نظرية التبادل المبنية على "الفردانية النفعية" المستوحاة من الاقتصاد.

نظرية التبادل الاج لهومانز تأسست على امتداد مفاهيم الدراسات البسيكوسوسيولوجية للجماعات الصغيرة التي تطرح مبدأ "تحول الأفعال" « La transaction » للتفاعلات الاج في عدة أسواق(حالات) مثال: السلوك بين الأفراد مؤسس على الحساب العقلي للمحاسن والمساوئ، مساهمات الفرد وموازنتها بأجره ...إلخ. من بين مؤلفاته: "الجماعة الاجتماعية"، قصد من خلاله تحليل دراسات حقلية لخمسة جماعات انسانية صغيرة، ثم ألف كتابا ثانيا بعنوان: "السلوك الاجتماعي" نتيجة تعزز هومنز بصداقته مع "بارسونز" الذي كان يعمل في قسم العلاقات الاجتماعية في جامعة هارفارد.

لقد قام بتحليل ودراسة العلاقة بين عناصر السلوك الاج المتمثلة في: الاحساس، النشاط، والتفاعل في حالة البيئة الداخلية والخارجية للجماعة.

**جوهر نظرية التبادل الاج عند "هومنز":**

يحدث التبادل الاج في نظر هومنز من تفاعل الأفراد في عدة أوجه منها: النفسية، الاقتصادية والاجتماعية لتكون فيما بعد قاعدة لعملية التبادل بين المتفاعلين لغايات وأهداف اجتماعية كالسمعة، الاعتبار، الاحترام، التقدير والنفوذ الاج وليس المنفعة المادية الصرفة لأنها ليست دائما هدف التبادل الاقتصادي، لأن الفرد داخل جماعته يشترك في عدة عمليات تبادلية تستهدف القبول الاج من قبل أعضاء الجماعة واحترامهم له الذي يزيد من اعتباره ومكانته الاجتماعيين. لقد اعتبر هومنز القبول، الاحترام، الاعتبار، والمكانة الاجتماعية مكافأة اج للفرد داخل جماعته(وهي ليست مكافأة مادية).

**قواعد وأسس نظرية التبادل الاجتماعي:** العوامل التي تتحكم في التبادل الاج بين الأفراد هي:

\_ كمية المساعدة المقدمة من قبل الطرف الأول (في العلاقة التبادلية) للطرف الثاني خلال فترة زمنية محددة.

\_ كمية النشاطات البديلة التي يمنحها الآخرون للأشخاص المشتركين معهم في العلاقة التبادلية.

\_ درجة القبول التي يحصل عليها الفرد خلال تبادله مع الآخر.

\_ إذا قام الفرد بسلوك عدائي لشخص معين، فإنه يحصل على سلوك عدائي بالمثل منه.

\_ إذا قام بسلوك عدائي تجاه شخص معين، فإنه يحصل على مكافأة لقاء ذلك من الاخر المشترك معه في علاقة تبادلية.

\_ إذا قدم الفرد مكافأة لشخص معين، فإنه يحصل على سلوك عدائي لقاء ذلك من قبل الطرف الآخر المشترك معه في علاقة تبادلية.

\_ محفزات السلوك الانساني هي درجة وقيمة كمية المكافأة والعقوبة التي سوف يحصل عليها الفرد لقاء قيامه به (السلوك) أو عدم ذلك.

\_ كلما زادت قيمة المكافأة زاد الفرد من نشاطه، والعكس صحيح.

\_ لكن إذا كرر الفرد نفس السلوك في فترة زمنية أخرى فإن قيمة المكافأة لا تكون عالية في تقويمه، لأنه سبق وأن حصل عليها، وتقل بذلك جاذبيتها وقد تؤدي إلى عدم القيام بالنشاط.

**المفاهيم المستعملة في نظرية التبادل الاج:**

الاحساس(الحاجة ثم الدافع)، النشاط(قيمته)، المكافأة السابقة للنشاط، التفاعل، الجماعة، النسق، النسق الداخلي، النسق الخارجي، القبول الاج أو الاعتراف الاج، الاحترام أو المكانة الاج.

تؤدي المكانة الاج دورا في عملية التبادل الاج، كما تفعل النقود في عملية التبادل التجاري ولكن هناك اختلاف بينهما(النقود والقبول الاج) وهو أن الفرد في التفاعلات الاج لا يستطيع استعمال القبول الاج للحصول على منافع أخرى في أعمال أخرى ومع أشخاص آخرين، عكس ما تفعله النقود في المبادلة التجارية (البيع والشراء)؛ فالاعتراف الاج ينحصر دوره في جماعة القبول الاج وليس في جماعات أخرى.

خصائص الجماعة:

1. ينبغي أن يكون السلوك فيها اجتماعيا(أي أن الفاعل عندما يقوم بسلوك معين فإنه يقوم به في إطار من العلاقات الاج، وإنه يضع في حسبانه الآخر ومعايير الجماعة).
2. عند قيام الفرد بفعل معين، فإنه حتما سيكون إما مثابا أو معاقبا من طرف الآخر.
3. ينبغي أن يكون السلوك داخل الجماعة حقيقيا، ملموسا وواقعيا وليس معياريا أي مثالي.

عناصر السلوك الانساني: لقد قام هومنز بتحديد لعناصر السلوك الانساني داخل الجماعة(السلوك الاج)، إنطلاقا من دراسته لخمسة جماعات، باستعمال الملاحظة المباشرة العلمية والدقيقة(العيش مع هذه الجماعات)، وكذا آراء المبحوثين من خلال الاجابة على أسئلة الاستبيان، دراسة الحالة وطريقة المقارنة بين النسق الداخلي والخارجي للجماعة.

1. الاحساس: مثلا: التعاطف، الاحترام، الفخر، العداء، الاحتقار، الحنين، وهي تلك المحركات والعواطف وحالات التأثير والاتجاهات، سماها هومنز "الاحساسات" وهي تبدأ من: الخوف، الجوع، العطش وتنتقل إلى الاحساسات المعقدة: كالحب، الكراهية، الموافقة، الرفض.
2. النشاط: هي كل الحركات العضلية للإنسان: كالعمل في البيئة الطبيعية مثلا: الزراعة، قطع الأخشاب، التدخين، تعاطي المخدرات، الحصول على طعام، الحديث أو الكلام، اللعب...إلخ.
3. التفاعل: مثلا: استجابة الطفل لتعليمات والديه، مشاركة الفرد(الطفل) البالغ في أعمال الكبار، الابن هو صديق لأمه؛ فالصورة التي توضحها هذه الأمثلة أن للطفل علاقة بهذه الموضوعات(والديه، الكبار، أمه)؛ حيث لم يستخدم هومنز كلمة الاتصال لأنها ليست كلمة عامة، فحينما يسمع الناس كلمة الاتصال يفكرون في اللفظ(التلفظ)، لكن التفاعل يتضمن الاتصال اللفظي وغير اللفظي.

تعريف النسق: هي العلاقة المتبادلة بين عناصر السلوك الانساني(الاحساس، النشاط والتفاعل) للجماعة.

تعريف النسق الخارجي: هو شكل العلاقة المتبادلة بين عناصر السلوك الانساني للجماعة في علاقتها مع بيئة معينة(استجابة الجماعة لمتطلبات هذه البيئة الخارجية) التكيف معها.

النسق الداخلي: أي تصفية وتنقيح سلوك الجماعة من كل تأثير خارجي من البيئة الخارجية وهو يتضمن الحياة المشتركة لأعضاء الجماعة.

ملاحظة: النسق الداخلي للجماعة يتضمن أشكالا متباينة من السلوك لا تقع في دائرة النسق الخارجي، إذ أن الحياة الداخلية للجماعة ليست نفعية تماما (كما في حالة استجابة الجماعة لمتطلبات البيئة الخارجية)، حيث أن الاحساسات لا تتشابه في حالة النسق الخارجي ولكنها تتشابه في حالة النسق الداخلي.

النسق الخارجي للجماعة: هو الاتصال بين أنساق: الأنشطة، الاحساسات والتفاعلات لأعضاء الجماعة من خلال العلاقات المتبادلة لهذه العناصر في بيئات مختلفة، بحيث تستجيب هذه الجماعة لمتطلبات هذه البيئة.

العلاقة المتبادلة بين عناصر السلوك الانساني للجماعة في اطار النسق الخارجي:

1. العلاقة المتبادلة بين الاحساس والنشاط: حين يرتفع المحرك (الاحساس) يحدث النشاط وحين ينجح هذا الأخير يختفي المحرك مثلا: الاحساس بالجوع يؤدي إلى قيام الجائع بنشاط من أجل الحصول على الطعام وعندما يأكل يختفي أثر الجوع، ولكن إذا اتخذت العلاقة شكلا أكثر تعقيدا مثلا: خوف الانسان من أن يجوع مستقبلا، فذلك يدعوه إلى التعاون مع آخرين بغية تأمين الأكل(النشاط)، ولكن إذا تغير جانب آخر من العلاقة (الطرف الآخر) فإنه سوف يؤثر على الآخرين أيضا. إذن الاحساسات تنبثق من النسق الخارجي(البيئة).
2. العلاقة المتبادلة بين النشاط والتفاعل: هي تشبه تقسيم العمل في المجتمع المحلي، وتخصيص أو تقسيم العمل يتضمن نوعا من التفاعل عن طريق تقسيم الأنشطة المختلفة على الأعضاء مثلا: النجار(نشاط النجارة) يتفاعل مع البناء، ويتفاعل مع الخياط (في حالة النسق الخارجي).

العلاقة المتبادلة بين عناصر السلوك الانساني للجماعة في حالة النسق الداخلي:

العلاقة المتبادلة بين التفاعل والاحساس: يشير هومنز إلى أن الذين يتفاعلون مرارا وتكرارا مع الآخرين، إنما يتجهون للتشابه كل منهم مع الآخر، فكلما كان التفاعل المتكرر بين شخصين أو أكثر مرتفعا، فإن درجة تشابه كل منهما للآخر ترتفع والعكس صحيح. مثلا: ارتفاع التفاعل بين الأشخاص يصحبه ارتفاع في الصداقة بينهم، فأنت حين تدخل مع شخص آخر في علاقة معه، وحين يرتفع التفاعل يتكيف سلوكك مع سلوكه، وسلوكه مع سلوكك، وهنا يحدث التشابه بين الشخصين وتحدث الصداقة.

انخفاض التفاعل المتكرر بين أعضاء الجماعة والخارجين عنها يصاحبه ارتفاع في قوة الاحساسات المضادة تجاه الخارجين عن الجماعة ومن جهة أخرى يرتفع التفاعل المتكرر وتنخفض قوة الاحساسات المضادة عند الجماعة.

**نظرية التبادل عند "بيتر بلاو":**

1. السلوك الاج عند "بلاو" لا يتحرك عشوائيا، بل يتأثر بمعايير تفاعلية تتحدد من قبل فردين يحدث التجاذب بينهما بهدف خدمة مصالحهما، فتقوم المعايير بعملية التقويم الأولى لقيمة السلوك المراد إقامته بينهما لمعرفة درجة ونوع الاستفادة، عندئذ يحصل تفاعل مبني على المفاوضة سماها بلاو: آلية الانطلاق (يتعرف الفرد عن قيمة نشاطه داخل الجماعة ومعاييرها) .
2. بعد تأثير معايير الانطلاق التفاعلية يتجه الفرد الذي حصل على المكافأة من جراء تعامله مع الآخر نحو الالتزام بقيمة المكافأة، إذ عليه أن يردها في مناسبة أخرى لمقدمها، عندئذ يكون تفاعل الفرد تبادليا؛ ثم يخطو التبادل مرحلة أخرى في الأخذ والعطاء حتى يحصل التبادل الدوري المستمر ولا يكتفى فقط بالتبادل المتقابل.
3. كلما زادت قيمة المكافأة المستلمة نتيجة نشاط قام به الفرد تجاه فرد آخر، زاد نشاطه تبعا وبدرجة أكبر مما سبق.
4. كلما قلت المكافأة، قل ميل الفرد لممارسة نشاطه الاج للحصول على مكافأة جديدة.
5. يقوى رباط التبادل بين المتفاعلين عندما يتم الالتزام بإرجاع المكافأة من قبل مستلمها بقيمة مساوية أو أكبر منها.
6. يتفكك رباط التبادل ويتقطع بين المتفاعلين عندما لا يتم إرجاع الالتزام المتكافئ من طرف الفرد المستلم.

**أشكال التبادل الاجتماعي عند بلاو:**

1. أفراد لهم القدرة على إلزام الآخرين بتقديم المساعدة لهم وهم من أصحاب النفوذ، السلطة والمال الذين يشغلون الأماكن العليا، يمتلكون القدرة على الحصول على حاجاتهم بالإلزام والاكراه.
2. أفراد يصمدون ولا يطلبون مساعدة الآخر على الرغم من احتياجهم له، وهم الأفراد الدهاة الأذكياء في البحث والتنقيب عن سبيل آخر لإشباع حاجاتهم دون الخضوع إلى الآخر المتفاعل معه حتى يحصرهم في زاوية حادة ليبتزهم ويستغلهم.
3. أفراد يجدون مصادر أخرى تنفعهم عند غير الآخر المتبادل معه في إشباع حاجاتهم، هم الأفراد الصامدون من ذوي النفوس العزيزة لا يتنازلون للآخر ويطالبون بمساعدته، حتى ولو كان غير مستغل لهم، أو ولو كان منصفا في مساعدتهم وإنما كرامتهم لا تسمح بذلك.
4. أفراد يخنعون أو يتذللون أو يحاملون من أجل الحصول على مكافأة لا يستحقونها إلا بهذا الأسلوب المتدني، فهم يتمسكون بمرادهم عند الآخر حتى ولو كان على حساب كرامتهم.

**النظرية التبادلية السلوكية في ميدان التربية والمدرسة:**

اعتمد السلوكيون أمثال: "بافلوف"، "سكينر"، "واطسن" وغيرهم أصحاب نظرية التعلم السوكية، في تحاليلهم النفسية وفي تجاربهم حول الحيوان كيفية حصول التعلم على النظرية التبادلية السلوكية، بحيث أجريت تجاربهم على الحيوان ثم عممت على الانسان، ويظهر ذلك جليا في مبدأ التعلم ب: الاستجابة مقابل المكافأة؛ الذي تم الاعتماد فيه على التحليل النفسي القائم على الاحساس والتفسير الاقتصادي القائم على المنفعة (لكن هؤلاء ينتمون إلى علم النفس التربوي أما علماء إج التربية في هذه النظرية فهم قليلون جدا).

إلا أنه يمكن توضيح ذلك في علم إج التربية بما يلي من أمثلة:

1. حالة الجماعة في النسق الخارجي: العلاقة المتبادلة بين الاحساس والنشاط:

تكون محركات الاحساس هنا خارجية أي عندما تحاول الجماعة التكيف مع البيئة المحيطة بها مثلا: إحساس الفرد بقلة خبرته مقارنة مع البيئة الخارجية المتطورة علميا وتكنولوجيا والتي تفرض على الفرد وعلى جماعته التعلم والرفع من مستواها التعليمي، أي الحاجة إلى العلم ومنه إذن يأتي النشاط لذلك.

\_ إذا كان الفرد الذي يبذل نشاطا في التعلم مثابا على ذلك، أي أن يحصل على مكافأة مثلا: حصوله على عمل مستقبلا، حصوله على احترام الجماعة، على المكانة الاج...إلخ؛ فإن ذلك سيزيد من نشاطه في التعلم والعكس صحيح.

العلاقة المتبادلة بين النشاط والتفاعل: دائما في حالة النسق الخارجي للجماعة وعند حاجتها للتكيف مع البيئة الخارجية فإنها تبذل نشاطا نحو التعلم وهذا يدفعه إلى الاستعانة بالمعلم، حيث يظهر تخصص في الأدوار مثلا: دور المعلم، دور المتعلم، وهذا يؤدي إلى زيادة التفاعل بينهما؛ وكلما زاد نشاط المتعلم نحو التعلم زاد تفاعله مع المعلم.

\_ المعلم يعطي التلميذ العلم ويأخذ منه الاحترام والتقدير.

\_ كذلك يكون هناك تخصيص في النشاطات فيما بين التلاميذ مثلا: تلميذ متفوق في الرياضيات وآخر متفوق في الأدب تدعوهما الحاجة إلى التفاعل بينهما بقدر قيمة المكافأة والالتزام بالعطاء مقابل الأخذ. وإذا لم يلتزم أحدهما بمبادئ التبادل فإن هذا الأخير سيتفكك وسيلجأ أحد الأطراف إلى الاستعانة بطرف من البيئة الخارجية، فحياة الجماعة هنا هي نفعية.

1. النسق الداخلي: العلاقة بين الاحساس والتفاعل:

الحياة هنا هي ليست نفعية، فجماعة التلاميذ إذا كانت منغلقة على البيئة الخارجية فإن ذلك سيزيد من تفاعلاتهم واتصالاتهم فيما بينهم وتقل تفاعلاتهم مع البيئة الخارجية وهنا تزيد الاحساسات بالتشابه والصداقة فيما بين المتعلمين من أعضاء الجماعة.

**نقد هذه النظرية:**

تفسر هذه النظرية التعليم والتعلم تفسيرا نفعيا الذي يعتمد على مبدأ التعلم مقابل المكافأةمنجهة تفسيرا نفسيا يستند إلى التحاليل النفسية للسلوكيون بعد قيامهم بتجارب على الحيوان وعمموا النتائج على الانسان ولكن هذا خطأ فالسلوك الحيواني يختلف عن الانساني لأن هذا الأخير يخضع للتراث الثقافي والعادات والتقاليد، فعملية التعلم لا تكون دائما محكومة بالنفعية أو السلوكية النفسية وإنما تكون خاضعة أيضا لمعايير المجتمع التي تضع للعلم ولطالبه قيمة مثلما يسود في المجتمعات التي تدين الاسلام حقيقة وواقعا أين يكون دافع العلم والتعلم هو نيل رضى الله في الجنة (كمكافأة على ذلك). فابن خلدون يتطرق إلى ذلك في مقدمته ويقول أنه كلما كان الهدف دنيويا كان التفاعل قائما على أساس المنفعة المتبادلة والتي أحيانا قد تؤدي إلى الصراع عندما لا يلتزم الآخر المستلم بالرد المكافئ المساوي أو أكبر قيمة ولكن إذا كان الهدف أو المصلحة أخروية وهي الفوز بالجنة فإن التفاعل لا يحصل على أساس المنفعة المتبادلة وهنا يندثر الصراع ويقوى التعاون والصداقة.

ومع ذلك يمكن الاستعانة بهذه النظرية(التبادلية السلوكية) في تفسير بعض الظواهر في علم إج التربية أي ظواهر المدرسة مثل: تدني مستوى النوعية في التعليم (البطالة في صفوف خريجي الجامعات وعلاقته بتدني مستوى النوعية في التعليم) في الجزائر، هجرة الأدمغة في المجتمع الجزائري، نظام الأجور وظاهرة الدروس الخصوصية ...وغيرها.